

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم      بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة الشعراء

وهي مع البسمة مئتان وثمان وعشرون آية وأحد عشر ركوعاً\*

زمن نزولها: سورة الشعراء مكية عند معظم المفسرين، لكن مقاتل يرى أن بعض آياتها مدنية منها قول الله تعالى عن الشعراء ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الآية ٢٢٥)، وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الآية ١٩٨). بينما يرى ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة، وهي قول الله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخر السورة (تفسير القرطبي) والحق أن مثل هذه الأقوال لا قيمة لها، ويرجع ذلك إلى أمرين: أولهما أن المفسرين صنفوا هذه الآيات إلى مكية أو مدنية لأن مضامينها تناسب الفترة المكية أو المدنية؛ وثانيهما أنهم وجدوا بعض الأحداث التاريخية تتفق مع مضامين بعض الآيات فقالوا بكونها مكية أو مدنية بناء على قياسهم. ولكن الحق أن هذا التمييز بين الآيات لا يصح إلا إذا كان هناك دليل قوي أو شهادة تاريخية. وعلى سبيل المثال، قد اعتبر مقاتل قول الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الآية ١٩٨) من الآيات المدنية، وليس ذلك إلا لكونه يتحدث عن علماء بني إسرائيل؛ وهذا خطأ، وذلك لأنه برغم أن سورة "مريم" مكية على وجه

\* بالإضافة إلى تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، فإنه ينقسم أيضاً إلى ركوعات.. وهي أقسام صغيرة تناسب القراءة في ركعات الصلاة، وهي مألوفة في المصاحف المطبوعة خارج الجزيرة العربية.. وخاصة في القارة الهندية وإيران وأفغانستان واندونيسيا وبعض بلاد المغرب العربي. (المترجم)

القطعية واليقين (القرطبي)، إلا أنها مليئة بذكر المسيحية واليهودية. كما أن سورة "طه" أيضاً مكية يقيناً (القرطبي)، ومع ذلك فهي مليئة بذكر بني إسرائيل.

أما ابن عباس واثان من تلاميذه فلم يعتبروا الآيتين الأخيرتين من هذه السورة مدنية إلا لأنه قد ورد فيهما أن الشعراء لا عمل لهم سوى قرض الشعر تخريصاً وتكلفاً إلا الصالحين منهم، إذ المسلمون لم يتوجهوا إلى قرض الشعر بوجه خاص إلا خلال الفترة المدنية ولم يكن بينهم شعراء قبل ذلك. ولكن هذا الاستدلال غير صحيح، لأن بيان المبادئ والقواعد لا يستلزم وقوع حوادث معينة؛ إذ لو سلمنا بصحة طريقة هذا الاستدلال وطبقناها على كتابات أرسطو وسقراط لكانت أمامنا سوانح غريبة لحياتهما بناء على ما ورد في كتبهما. ألا يعلمون أن المرء قد يفكر أيضاً بعيداً عن الوقائع والأحداث؟ وعليه، فلا يصعب على المرء أن يدرك إمكانية تناول القرآن الكريم بعض المواضيع والمبادئ بعيداً عن الأحداث الجارية، وإن لم يعتبره كلام الله تعالى.

والأغرب من ذلك أنه لم يقع في هذا الخطأ في أول الأمر إلا المسلمون أنفسهم، ثم أخذ منهم المسيحيون فقاموا بتكراره وإثارته. ولكن كل من يتدبر في الأمر، وإن كان عدواً للإسلام، سيفطن إلى خطأ هذا الاستدلال. فمثلاً قد خطأه "ويري" (R. Wherrey) في تفسيره، واعتبر هذه السورة كلها مكية بشكل يقيني. (تفسير القرآن الكريم لـ "ويري")

إذاً، فهذا الاستدلال باطل حتماً سواء قام به المسلمون أو المسيحيون. فلا يجوز لنا تحديد زمن السور إلا بناء على الشواهد التاريخية، ومع ذلك كل ما يجوز لنا قوله هو إن السورة الفلانية أو معظمها قد نزلت في الفترة الفلانية. أما أن نقول أكثر من ذلك بناء على القياس فقط، فسوف يجرتنا هذا إلى الخطأ، ولن يجلب لنا أي خير.

**الترتيب والترابط:** لقد قال الله تعالى في أواخر سورة "الفرقان" أن لا يظن الناس أنه تعالى سيدمر النظام الذي قد أقامه بواسطة الأديان القائمة في الدنيا منذ أزمان سحيقة. عليهم أن يعرفوا أن الله تعالى قد خلق الإنسان لكي يلي ندائه ويتخلق

بأخلاقه تعالى، وإذا لم يحقق الإنسان هذا الهدف فما الداعي أن يحافظ الله على مثل هذا الإنسان أو النظام، ويأسفَ على هلاكه؟ أما في هذه السورة فقد بين الله تعالى أن محمداً رسول الله ﷺ يتوجس خيفةً من هذا الخطر نتيجة حبه وعطفه على الإنسانية، ويود أن يُنقذَ الناس من هذا الدمار إن أمكن. ولا شك أن تفكيره ﷺ هذا دليل على حبه الشديد للإنسانية، ولكنه تفكير لا يتماشى مع الخطة الإلهية. إنما يريد الله تعالى أن يهب الإنسان العلم والعرفان ليتيح له الفرصة لكي يبحث برغبته وإرادته عن سبل التقرب إلى الله تعالى، وإذا لم يعتنم الإنسان هذه الفرصة فليتحمل النتائج المنطقية لذلك. ولولا هذه الخطة الإلهية لصار الإنسان كالألة، ولم يكن ذلك الكائن الذي أراد الله تعالى أن يخلقه على صورته. لذا فبرغم أن ما يفكر به محمد ﷺ دليل على حبه وعطفه على الإنسانية، إلا أنه لا بد للإنسان أن يعيش بحسب الخطة الإلهية، وإلا فلن يحظى بالنجاة الحقيقية.

بدءاً من سورة "يونس" كان الخطاب موجهاً إلى النصرارى واليهود، أما في هذه السورة فقد توجه إلى المسلمين، ومن أجل ذلك حدث تغيير في حروف المقطعات. لقد سُميت هذه السورة "الشعراء" لأن مضمونها يؤكد أن الإنسان لا يمكن أن يحرز الرقي إلا إذا توافق قوله مع فعله، وأما الذين يقولون ما لا يفعلون فلا يحالفهم النجاح كما هي حال الشعراء. وكأن الله تعالى قد بيّن بذلك أن المسلمين هم وحدهم الذين ستفق أفعالهم مع أقوالهم في هذا العصر، فلن يكون النجاح حليفاً لأحد سواهم. أما غيرهم فهم كالشعراء.. بمعنى أنهم يقومون بدعاوى عريضة، ولكن لا يعملون إلا قليلاً جداً، فلن ينجحوا إزاء المسلمين.

**ملخص مضامينها:** لقد أُشير في مستهل هذه السورة أنها والصور التالية لها شرحٌ لصفات الله الثلاث: اللطيف والسميع والمجيد، حيث برهنَ الله تعالى فيها على أنه مطلع على أخفى الأسرار ومجيباً للدعاء وعلى أن أحكامه تدل على عظمته وليس على أي ظلم وجبر منه تعالى. (الآية ٢)

إن هذا الكتاب يذكر بنفسه الأدلة على صدقه ولا يحتاج إلى مساعدة خارجية لهذا الغرض. (الآية ٣)

ثم يقول الله تعالى إننا لما أخبرنا محمداً بهلاك الكفار في السور السابقة وبأننا لن نتركهم دون عقاب أصابه حزن شديد لعطفه الشديد على الإنسانية، ولكن حزنه هذا غير مجد، لأن الله تعالى قادر على أن يجبر هؤلاء القوم على الإيمان، ولكن لا فائدة من مثل هذا الإيمان. (الآيتان ٤-٥)

إن هؤلاء القوم لا يريدون قبول الحقائق الثابتة ويسخرون من كل حقيقة. (الآيتان ٦-٧)

لقد خلق الله تعالى في الدنيا أسباباً شتى لسد كل حاجة للناس، وخلق الأزواج من كل نوع، فما الغرابة في وجود الأزواج في العالم الروحاني؟ أي ما الحرج إذا خلق الله تعالى مثيلاً لموسى ومثيلاً لعيسى؟ إن هذا ليس مدعاة للاعتراض، بل هو دليل على قدرة الله ورحمته. (الآيات ٨-١٠)

ألم يروا أن الله تعالى قد بعث موسى إلى فرعون، ولكنه خاف بطش أهل بلده واعتذر ليعفى من هذه المهمة واقترح أن يُبعث هارون عوضاً عنه؛ ولكن الله تعالى لم يقبل عذره لأنه كان هو الأولى والأنسب لذلك، غير أنه تعالى ضم إليه هارون قائلاً لهما إني معكما فاذهبا إلى فرعون وبلغاه رسالتي، وقولا له أن يسمح لبني إسرائيل بمغادرة البلاد. (الآيات ١١-١٨)

فذكر فرعون موسى بما أسدى إليه من معروف في الماضي، وأثار بعض المطاعن على حياته متهماً إياه بنكران الجميل. فقال له موسى ردّاً على مطاعنه: لو كنتُ كما تظن لما اختارني الله تعالى لرسالته. (الآيات ١٩-٢٢)

ثم قال له موسى: ما قيمة أياديك عليّ إزاء ما فعلتَ بقومي حيث اتخذتهم عبداً. (الآية ٢٣)

فغيّر فرعون مجرى الحوار متهرباً وأخذ يثير بعض الاعتراضات على وجود البارئ تعالى. فلما أجابه موسى عجز فرعون عن الجواب وهدد موسى قائلاً: لئن اتخذتَ إلهاً غيري لألقينك في السجن. فقال موسى: هل ترغب أن ترى بعض

آيات الله؟ قال: فأت بها إن كنت من الصادقين. فألقى موسى عصاه فرآها فرعون ثعباناً. وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء لامعة. فعزا فرعون هذه الآيات إلى الشعوذة والسحر، وأثار قومه ضد موسى وقال: إنه يريد أن يتسبب عليكم ويخرجكم من دياركم. فأشاروا عليه أن يدعو السحرة ليبارزوا موسى. فدُعي السحرة فغلبوا فأمنوا بموسى. (الآيات ٢٤-٥٢)

فأمرنا موسى أن يخرج بقومه من تلك البلاد. (الآية ٥٣)

فهيج فرعون قومه على موسى، وخرج يطاردهم، ولكنه هلك. فأعطى الله تعالى موسى مثل النعم التي كان يتمتع بها فرعون (وبالفعل يقال إن بلاد الشام هي مثل مصر بل هي أفضل منها). (الآيات ٥٤-٦٠)

ولما تقدم فرعون بجنوده خاف قوم موسى، فهدأ من روعهم. فأخرج الله موسى وقومه من البحر عبر طريق يابس كمعجزة، وأغرق فرعون. (الآيات ٦١-٦٩)

ثم انظروا إلى إبراهيم الذي أخبر قومه أن الله تعالى يسمع ولكن أصنامهم لا تسمع بل لا حول لها ولا قوة. فأجابوه وقالوا: مهما يكن فإننا لن نترك الدين الذي وجدنا عليه آباءنا. فقال إبراهيم إن ما تعبدون من دون الله هم عدو لي، أما أنا فلا أؤمن إلا بالله الذي هو رب فعال متصرف في أمور الكون. منه ينزل الهدى، ومنه يأتي الرزق المادي، ومنه يأتي الشفاء، ومنه تأتي الحياة بعد الموت، وعليه نعقد الآمال كلها بعد الموت. (الآيات ٧٠-٩٠)

من سنة الله المستمرة على الدوام أنه ينصر أهل الصلاح ويعاقب أهل الشر. إن المجرمين يتكبرون في أول الأمر، ولكنهم يضطرون للاعتذار في نهاية المطاف. وكل هذا يشكّل برهاناً على أن الله تعالى ملكٌ ورحمن. (الآيات ٩١-١٠٥)

ثم انظروا إلى نوح، فهو الآخر أعلن أنه مبعوث من عند الله تعالى، فأمر بفعل الخير، وأراد خدمة قومه بدون أي مقابل، ولكن معارضيهِ اعترضوا عليه وقالوا إن أتباعه من أراذل القوم فكيف يمكن أن ينتصر علينا. فقال لهم نوح: إنما تُعرف مكانة المرء بالأعمال الصالحة، لا بالعشيرة والسلطة. (الآيات ١٠٦-١١٦)

فهدده المعارضون بدلاً من أن يجيبوه على ما قال، فابتهل إلى الله تعالى أن يحكم بينه وبين قومه. فلم تنفع المعارضين ما عندهم من أسباب مادية شيئاً، ولم يكن إلا ما أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى. (الآيات ١١٧-١٢٣)

ثم جاء هودٌ قومَه عادًا، فحصل معه ما حصل مع الرسل قبله. لقد نبه قومه أن الأمم لا تحيا بما تحقّقه من عظمة مادية، بل تحيا بالأخلاق والروحانية التي لا توجد فيكم. فقالوا له لقد قال الأولون أيضاً ما تقول لنا، ولم تضر هذه الأقاويل أحداً شيئاً. فأخذوا وعُوقبوا في نهاية المطاف. (الآيات ١٢٤-١٤١)

ثم جاء صالح قومَه ثمودَ، وأعلن أنه جاء ليخدمهم بدون مقابل، وأخبرهم أن العظمة المادية بدون القوة الروحانية تدفع الأمم إلى الدمار. فرفضه قومه وقالوا كيف يمكن أن تتبع شخصاً حقيراً مثلك. فعوقبوا في نهاية الأمر. (الآيات ١٤٢-١٦٠)

ثم جاء لوط، فحل بقومه مثل ما حل بغيرهم من قبل إذ كانوا متورطين في المساويء الخلقية. (الآيات ١٦١-١٧٦)

ثم جاء زمن أصحاب الأيكة، فعاملوا نبيهم شعيباً المعاملة نفسها، فأخذهم الله تعالى، وكانوا يغشّون في تجارتهم ويُخسرون الميزان. (الآيات ١٧٧-١٩٢)

كذلك فإن هذا القرآن وحي الله تعالى ويقدم أدلة صدقه بنفسه. إن الأنبياء السابقين قد أنبأوا به، وإن علماء بني إسرائيل أيضاً يعرفون صدقه بناء على ما ورد في كتبهم. ثم إنه قد نزل بلغة القوم الذين هم أول المخاطبين به. ولو نزل القرآن بلغة غير لغتهم لم يفهموه، فلم لا يتدبرون في القرآن وقد نزل بلغتهم؟ فليس سبب إنكارهم إلا أنه قد حال دونهم ودون الإيمان ما قد حال دون إيمان أمم الأنبياء السابقين. إنهم ينتظرون العذاب، ولكن ماذا ينفعهم العذاب إذا جاءهم؟ لو كان محمد ﷺ صادقاً فعليهم أن يدركوا أن مجيئه هو بمثابة العذاب للذين لن يصلحوا ما بأنفسهم. (الآيات ١٩٣-٢١٠)

على الناس أن يتدبروا تعاليم القرآن الكريم ليروا ما إذا كان فيها ما يؤيد الشيطان. وإذا لم يكن فيه ما يدعم الشيطان، فكيف يظنون أن الشيطان نزل بهذه التعاليم التي تعارض الشيطان وتنصر الله تعالى؟ ولم لا يدركون أن الشيطان لا

يقدر على أن يأتي بهذا الكلام العظيم المليء بالمعارف؟ إن ما في القرآن هو ما يأتي به الأنبياء الصادقون، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يسمع الكلام الذي ينزل على أنبياء الله الصادقين. فيا أيها الرسول، استمرّ في تبليغ رسالة الإله الواحد، وابدأ بدعوة قومك أولاً. فمن آمن منهم فعليك بتربيتهم، أما الذين كفروا فأعرض عنهم متوكلاً على الله تعالى الذي يراك وسيهبك القوة والغلبة. لن يبقى المسلمون متفرقين هنا وهناك طويلاً، بل سيجمعهم الله تعالى حيث يعيشون معاً، وحيث يعبدون الله الأحد في حرية، لأنه تعالى مجيب الدعاء.

إنما تنزل الشياطين على الأفاكين الآثمين. إنها تنصت إلى ما ينزل من السماء، وأكثرهم كاذبون. والشعراء يتبعهم الضالون الغاؤون الذين ليس همهم إلا التمتع بالكلمات الجميلة، أما العمل الصالح فلا يوجد له أثر عند المعلمين منهم ولا تلاميذهم. أما المؤمنون فهم عابدون لله ودعاة للصدق. يتحملون الأذى في سبيل الصدق، ولا يرفعون السلاح إلا إذا اضطروا للدفاع؛ والدليل على صدقهم أنهم، رغم ضعفهم، يتغلبون على الأعداء في النهاية. (الآيات ٢٢١-٢٢٨)